

## استقلال الألفاظ

في كتاب الأغاني قطعة وصف فيها أبو الفرج عفو الأمير عبد الله بن طاهر عن محمد بن يزيد الأموي الحصري وهو رجل من ولد مسلمة بن عبد الملك ، تكاد تكون هذه القطعة قصة صغيرة على مصطلح عصرنا ، تشتغل في فائتها على مايسمونه العرض أو البسط ، وفي وسطها على العقدة وفي خاتمتها على الحل . مرت بي وأنا أفسر هذه القطعة في كية الآداب العبارة الآتية : فلما ولي عبد الله مصر ورد إليه تدبير أمر الشام . . .

رجعت الى القاموس المحيط للفيروزبادي في تفسير مادة التدبير فوجدت ان التدبير انما هو النظر في عاقبة الأمر كالتدبير ، فقلت النظر في هذا التفسير وقلت في نفسي : اذا كان معنى التدبير النظر في عاقبة الأمر فكيف نفهم هذه المادة في العبارة المذكورة !

لا شك في ان للفظ الواحد جملة من المعاني تختلف على اختلاف المواضع التي يستعمل فيها هذا اللفظ وعلى اختلاف الأذهان التي يعيش فيها ، فاذا أحببنا أن نفهم معنى التدبير في عبارة أبي الفرج متقيدين بتفسير الفيروزبادي فلا يكون فهمنا لهذه المادة فهماً صحيحاً لأن لفظ التدبير في المكان الذي استعمل فيه انما معناه السياسة أو الحكم بحسب عرف عصرنا ، فما معنى : ورد إليه النظر في عاقبة أمر الشام ، لا ريب في أن بين السياسة وبين النظر في عواقب الأمور شيئاً من الصلة ، فمن لوازم السياسة ان ينظر صاحبها في العواقب ، ولكن هذا المعنى اللغوي الذي حدته رجال اللغة يختلف عن المعنى السيامي الذي يمر على خواطر أهل السياسة ، فلفظ التدبير له في العبارة المذكورة في قطعة الأغاني معنى خاص لا وهو السياسة أو الحكم ، وقد كان هذا المعنى شائعاً في عصر صاحب الأغاني ، يقول المتنبي في إحدى قصائده في كافور :

بدبر الملك من مصر الى عدن الى العراق فأرض الروم فالنوب  
فالتدبير في هذا البيت معناه السياسة ، وهذه المادة انما هي من المواد التي  
تحوّلت معانيها على الأيام ، فانا في عصرنا هذا لا نقول بدبر فلان مصر  
أو الشام ، وانما نقول : يسوس أو يحكم أو ماشا كل ذلك ، ففي هذا اللفظ  
دليل على ان الألفاظ تُحوّل معانيها بين عصرٍ وعصرٍ ، فمرةً تضيق هذه المعاني  
فتنتقل من وجهٍ عام الى وجهٍ خاص ، ومرةً تتسع فتنتقل من أنقٍ خاص الى  
أفقٍ عام ، وليس هذا بموضوعنا في المقال .

قلت : ان للألفاظ طائفة من المعاني تختلف على اختلاف المواضع التي تردُّ  
فيها ، فكما ان للتدبير في كلام صاحب الأغاني وشعر المتنبي معنى خاصاً ،  
فكذلك نجد للتدبير في كلام رجال الفلسفة معنى خاصاً ، فقد نجد مثلاً في  
فصل من فصول الرسالة الجامعة المنسوبة للمجريطي هذه العبارة : وان هذه الأرواح  
المدبّرة للعالم بما فيه . . . فالتدبير في هذا المكان انما هو غير التدبير الذي  
مررنا به ، ان له في كلام المجريطي وغيره من رجال الفلسفة معنىً فلسفياً  
يختلف عن المعنى السياسي ، وما يقال في هذا الموطن في التدبير يقال في التدبير ،  
وهذه المادة أخت التدبير ، فالتدبير في الفلسفة يختلف عن التدبير في اللغة ،  
فان المجريطي لما قال في آخر الفصل الذي أشرت اليه : وتدبر هذا القول  
تسعد به ان شاء الله ، أراد بقوله : وافهم هذا القول وأدركه واعمل الروبة  
فيه وما شابه ذلك .

وكما ان الألفاظ تختلف معانيها على اختلاف المواضع التي تستعمل فيها  
فكذلك تختلف معانيها على اختلاف الأذهان التي تعيش فيها ، فقد شاع لفظ  
التدبير في لغتنا العامة وأصبح له في كل ذهنٍ معنى خاص ، فاذا كان فلان  
ضيق العيشة وقالوا فيه : انه بدبر حاله ، فكأنهم يريدون بذلك انه يستطيع  
بما أوتيته من حسن التصرف أن يتصرف في أمر عيشته حتى لا يظهر عليه أثر

الضيق ، فالتدبير في هذا الموضع معنى يختلف عن معانيه في اللغة والسياسة والفلسفة ، وكذلك اذا قالوا : ان فلاناً قد غضبت عليه الحكومة ولكنه دبر أمره ، فكأنهم يعنون بذلك انه استطاع ان يرضيها بالمصانعة أو بغيرها حتى رضيت عنه .

وإذا أردنا أن نتوسع في الاستشهاد فانا نجد المجال مديداً .  
لما وصف أبو الفرج في القطعة التي ذكرتها محمد بن الفضل الخراساني وهو قائد من وجوه قواد طاهري وابنه عبد الله قال فيه : وكان عاقلاً ، فاضلاً .  
فهل نجد لمادة العقل في هذا المكان معنى يتفق عليه اثنان مناه اذا رجعنا الى كتب اللغة في تفسير معنى العقل وجدنا في بعضها ما يلي :

العقل : العلم أو بصفات الأشياء من حسننها وقبحها وكلها ونقصانها أو العلم بخير الخيرين وشر الشريرين أو مطلق لأمرٍ أو لقوةٍ بها يكون التمييز بين القبح والحسن ولعان مجتمعة في الذهن يكون بمقدمات يستنب منها الأغراض والمصالح وتهيئة محمودة للانسان في حركاته وكلامه والحق انه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية .

فماذا أراد أبو الفرج لما قال في محمد بن الفضل الخراساني انه عاقل ، انا لا نصل الى حقيقة مراده لأن للعقل معنى يختلف على اختلاف المواطن التي يرد فيها ، والأذهان التي يعيش فيها ، فله في الفلسفة معنى خاص ، وله في كل موطن يستعمل فيه معنى خاص ، فاذا قال الناس ، في لغتهم العامة ، في رجل لا يلقى بنفسه الى التهلكة : انه عاقل ، فكأنهم حصروا عقله في هذا الموضع في اجتناب المهالك ، وكذلك اذا قالوا في رجل جمع الأموال من كل الوجوه ، من حرامها وحلالها : انه عاقل ، فكأنهم جعلوا عقله في هذا المكان في جمع المال على أي وجه ، حتى لا يحتاج الى أحد في حياته .

ولما قال المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم  
فكأنه أراد بالعقل في بيته هذا معنى لا يخطر ببال كل واحد منا ، فقد يكون  
معنى العقل في ذهن المتنبي كثرة التفكير في العواقب وقوة الحس وقد يكون  
معنى الجهالة في ذهنه قلة المبالاة بالعواقب وضعف الحس .

نستخرج من كل ما تقدم ان الألفاظ ليس لها حياة مستقلة ، وإنما حياتها  
في مواضع استعمالها وفي الأذهان التي تعيش فيها ، فإذا جرّدناها من العبارات  
التي تستعمل فيها أو نقلناها من الأذهان التي تعيش فيها فلا نجد لها استقلالاً ،  
وبهذا القول ندرك فائدة المعجمات التي تفسر الألفاظ بحسب عصور ظهورها  
واستعمالها ، ولا نجد من هذه المعجمات شيئاً في لغتنا ، فإذا وضعنا معجمات تفسر  
الألفاظ فيها على الوجه الذي أشرت إليه فقد نحيط بمعنى المادة في كل طور  
من أطوار استعمالها ، اضرب مثلاً لذلك مادة التدبير نفسها ، ولو كان لنا معجمات  
تفسر هذه المادة بحسب مواضعها من الكلام أو بحسب العصور التي استفاضت  
فيها لتبين لنا ان هذه المادة غير مستقلة في معناها ، وإنما هذا المعنى يتحول من  
وجه الى وجه ، بحسب المواضع والعصور والأذهان وغير ذلك .

ولما قال بعض رجال اللغة : إن الألفاظ ليس لها حياة مستقلة ارادوا بذلك  
أن يردوا على الذين شبهوا الألفاظ بالخلوقات الحية وقالوا انها تولد وتموت أو  
تموت ، فالأستاذ الفرنسي «فاندريس» لا يرى ان اللفظ يولد ولا يرى انه  
يعيش أو يموت كما يولد الرجل كما يعيش أو يموت ، إلا اني أرى في هذا النحو  
من الفهم لكلام من قالوا بحياة الألفاظ بعض الانحراف ، فالأستاذ «دارمستر»  
صاحب كتاب : حياة الألفاظ ، لا يخطر بباله ان الألفاظ تولد بنفسها وتعيش  
 وتموت بنفسها ، وإنما يذكر لميلادها وحياتها وموتها عللاً شتى ، منها ما له صلة

بالمنطق ، ومنها ماله صلة بالاجتماع وغير ذلك ، فاطلاقه الحياة على الألفاظ  
انما هو من باب التجوز ، فكأنه يريد أن يُربنا في عالم الألفاظ ميلاداً وحياةً  
وموتاً كما نشاهد ذلك في عالم الطبيعة .

فمن الخطأ بعد هذا كله أن نعتقد ان معجمتنا اللغوية تادرة على أن تفسر  
لنا كل الألفاظ تفسيراً فيه مقنع ، لأن هذه الألفاظ طائفة من المعاني تتغير  
بتغير المواضع والأذهان والعصور ، والخلاصة ان حياة الألفاظ لا تنعم  
بشيء من الاستقلال .

مفيس جبري

